أصوات عذبة وقيود قابلة للكسر

أبدأ مقالي بكلمات عذبة على لسان كاتبة هذا العمل الإنساني الرائع .. في عنوانه «أن تقتل طائرًا بريئًـــا» فليس من العدل أو الأخلاق قتل البراءة أيًّا كانت صورتها لأنها لا تؤذينا في شيء ولا تكدر علينا صفاء هذه الحياة فلِمَ نعاديها ونحاول قتلها لقد طرحت هاربر لي سؤالاً إلى الضمير والعقل معًا طرحته ببراءة وعفوية شديدة لعلها تجد إجابة شافية... وهو نفس السؤال الذي طرح قبل قرابة ألف وأربعمائة عام على لسان الفاروق عمر بن الخطاب عنـــدما قال "كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا" لقد كان السؤال رسالة عظيمة في معناها للضمير الإنســـاني، رسالة لإيقاظ هذا الضمير من غفوته.

إن القتل هو أسوأ صور العداء للآخر والانتقام منه فأنت تقتل فأنت تكره وتبغض فإنه "ليس مقبولاً كُره أي شخص" كما قال أتيكوس فينش. إن رواية هاربر لي تدعونا إلى إيقاف العداء تجاه الآخر لاختلاف الفكر أو اللون أو الثقافة أو الدين لأنها جريمة غير مقبولة وتحمل ظلمًا شديدًا وانتهاكًا للحرية والكرامة الإنسانية فعندما قال أتيكـــوس فينش إن المادة الأولى من الدستور الأمريكي تؤكد أن جميع الأفراد الذين يعيشون على أرض الدولـــة متســـاويين في الحقوق والواجبات متمتعين بكل صور الحرية" كان يحاول إيقاظ ذاكرة الضمير والعقل الذي غاب عن وعي الإنسان وانزلق إلى هاوية النفس وهوس الذات واللاإنسانية الكريهة التي عقدت محاكمة هزلية تتناقض مع ما سطر عن الحقوق والواجبات تجاه الآخرين الذين يعيشون معنا فالمحاكمة التي عقدت في بلدة مايكوم هي مهزلة إنسانية بكل ما تعنيهـــا الكلمة فعند عقد المحاكمة تبدو في شكلها محملة بعبق الديمقراطية والحرية فالمتهم أمام كل المحاكم الإنسانية بريء حتى تثبت إدانته ...

ولكن أتيكوس فينش يعلم أن المتهم مُدان قبل أن تبدأ القضية وإدانته ليست لتوافر الدوافع أو الأدلة الماديـــة لجريمة قد اقترفها ولكن لأنه شخص آخر يختلف في اللون لأن بشرته غامقة بحكم الخلقة لا أكثر وأنها تـــزعج وتـــؤلم أصحاب الوجوه ناصعة البياض، إنها روح مجتمع لم ينضج ولم يُشفَ من الهوس النفسي إن هذا المجتمع يتناقض مع نفسه

كما حدث في الصالون النسائي في منزل أتيكوس في حضرة العمة أليكسندرا والآنسة مودي والآنسة راتشيل والسيدة مريوذر في وجود الطفلة سكاوت وهن يرثين إحدى القبائل الأفريقية التي لا تجد ما تقتاته وتعاني من الفقر المدقع والتخلف الإنساني حيث يتبادلن حوارًا مفعمًا بالإنسانية والشفقة والعدل والمرثاة لهؤلاء البشر ثم يسخرن من أتيكوس الذي يقف مدافعًا عن بريء لم يقترف إثمًا إلا أنه أراد العيش فقط دون أدنى حقوق آدمية أو مطالب وحقوق مشروعة له بحق قانون السماء والأرض معًا. إنهم يضيقون ذرعًا بأتيكوس في قبوله الدفاع عن إنسان بريء قتل قبل أن يحاكم. "إنك تدافع عن الزنوج": هذه مقولة المجتمع المتناقض لأتيكوس. إن المجتمع الذي يهتم بمفردات شكلية تجعله فقط يفتقد أدنى مظاهر التسامح النفسي والرحمة بالآخر وهذا ما عبر عنه أتيكوس في مرافعته أمام المحكمة للدفاع عن توم روبنسون عندما قال "إنها لم ترتكب جريمة، بل كان ما فعلته مجرد كسر لمجموعة أعراف صارمة من أعراف مجتمعنا ..." إن ما ادعته مابيلا وتوجيهها الاتهام لتوم روبنسون كان له سند اجتماعي لأنها تعلم أنها قضية رابحة بحكم الأعراف والتقاليد الاجتماعية الصلدة في فحواها والتي لا تخضع قضية من هذا النوع للعقل أو الضمير ... لقد حاول أتيكوس أن يخضع القضية لمضمونها الحقيقي عندما قال "قضية توم روبنسون مسألة تتعلق بجوهر ضمير الإنسان ... ما كنت سأستطيع أن أذهب للكنيسة وان ألتزم بالصلاة لله إذا لم أحاول مساعدة ذلك الشخص " لقد كان ضمير أتيكوس فينش هو الحكم على هذه القضية، لقد كان حازمًا وأعطى ظهره لهذا المجتمع الذي كان مشمئزًا مما يفعل لكن الشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان، إن الرهان الذي بني عليه أتيكوس قضيته هو محاولة إيقاظ مجتمع من غفوته الإنسانية وعقول قد تجمدت وتوقفت عند ثقافة ذات محاور لونية دون أدنى اعتبار لأي قيم رفعت على أيدي المهاجرين الأوائل لهذا العالم الجديد الذين فروا يومًا ما من وطأة الضمير الإنساني على أرض العالم القديم، وإن حملت المحاكمة طابع الهزل ولكن كان هناك بصيص من الأمل والنور في محاولة تغيير واقع حتمي بئيس وهذا الأمل كان في صورة أطفال "جيم . سكاوت . ديل " الذين الذين لم يكونوا شهود إثبات في هذه المحاكمة ولكن شهودًا للضمير فإنهم ينضمون بطريقة عفوية لمقاعد الفريق الآخر ويجلسون في صفوفهم ويتلمسون أقدراهم ويقتربون من مشاعر الحزن والأسى والأمل بداخلهم ... وها هو والدهم يقف بلسان الحق مدافعًا عن ما هو أعظم من توم رونسون، إنه يدافع عن القيم الإنسانية

السامية والعدالة الاجتماعية وأيضًا يدافع عن ثقافة العالم الجديد التي تغتال على أيدي ضمائر ملوثة بميراث لا إنساني ظالم، إنه أراد أن يعيد كتابة دستور بمعاني إنسانية رائعة مستخدمًا كل ما أوتي من قوة، لقد كان أشد أسلحته وبرهانه هو إيقاظ الضمائر ومخاطبتها بالمنطق والحجة لعلها تستفيق من سبات أنانيتها. لقد تفاعل الأطفال مع المحاكمة بعفويتهم وتأثروا بها، لقد تحرر هؤلاء الأطفال من المخاوف والعزلة والتباعد عن الآخر فالآخر بالنسبة لهم لم يعُد المجهول الذي كانوا يحاولون اكتشافه في بداية الأمر والذي مثله السيد بو رادلى لهم، لقد كان المجهول بالنسبة لهم عالم يخافونه لأنهم لا يعرفونه، ربما كان هذا المجهول كائنًا وهميًا أو واقعيًا فأخذهم جرأتهم وعفويتهم إلى محاولات عدة للذهاب إليه بأقدامهم وأن يطرقوا أبوابه، لقد كانت رحلتهم إلى هذا العالم بعفوية مطلقة واكتشفوا فيها الكثير، إنهم قد وجدوا من هذا المجهول عطايا وهدايا أحيانًا ثم صار هذا المجهول منقذًا لهم من سكين الغدر الدامي، لقد تحمس الأطفال الصغار لهذا المجهول لأنه لم يعد مجهولاً لهم .

ولكنهم اصطدموا بأن هناك من يجهل و لم يستطع أن يعبر حواجز خوفه فسقطت القضية أمام أعينهم في صور مأساوية بل كان عليهم أن يدفعوا ثمن الوقوف مع هذا المجهول هم وأتيكوس معًا وعليهم أن يتحملوا عواقب يقظة ونضج ضمائرهم ويتعرضون للاغتيال على يدي أحد الموتورين من هذا المجتمع وهو بوب يوويل الذي أعماه ظلام الضمير فصار لا يرى إلا أنانية عنصرية فقط رغم انتصاره الزائف هو وابنته داخل المحكمة الذي كان انتصارًا بحكم اللون فقط لا بحكم المنطق أو الضمير أو العدل. لقد تحول بوب يوويل والكثيرون من أهل مايكوم إلى قضاة ومنفذي أحكام فها هو السيد كاننجهام يريد قتل توم ربنسون ويقتص منه هو وعصبة من الرجال وهو في سجنه قبل أن تبدأ محاكمته.

لقد كان حوار سكاوت الطفولي البريء معه وتذكيره بأشياء ذات عفوية وبراءة محاولة منها لإيقاظ عقله وضميره معًا، قد كان ارتباكه أمام طفولة وبراءة سكاوت إعلانًا عن هزيمة منكرة في عالم اللاشعور بداخله هو وعصبته، لقد كان قولها ".... قد تتطلب القضية وقتًا طويلاً حتى تجد حلاً وإنكم ستخرجون منها رابحين في النهاية " ... كرمز للتحرر من الأنانية والعنصرية وإن طال ليلها ... لقد كانت كالبورينا وهيلين زوجة توم روبنسون والقس سايكس أصحاب الوجوه الملونة أفرادًا استسلموا لأمر واقع ولا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم بل لا يمكنهم تكذيب هؤلاء

ذوي الوجوه ناصعة البيضاء وبما أنهم لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم كان لابد أن يكون لهم من يتحـــدث بمـــا لا يستطيعون نطقه وإن يكُن مخالفًا للوهم أمام المحكمة الهزلية وكانوا لا يستطيعون النطق وكل ما فعلوه أثناء المحاكمة هو الجلوس صامتين وأن يقفوا في نهاية المحاكمة تقديرًا لأتيكوس عند عبوره ردهة المحكمة.

لقد كان الأسلوب الذي استخدمه السيد جيلمر وأسلوبه الفج الكريه مع توم روبنسون ومناداته لتوم بالولد بأسلوب احتقار يحمل في طياته الكراهية "إذن فأنت تقول إنها تكذب يا ولد"، إنه أسلوب أوعك ديل وجعله في حالة من الغثيان ... وكان إسراع أتيكوس لإنقاذ روبنسون فى هذه المرة لا من قمة الاغتصاب ولكن من الوقوع في الرذيلة الكبرى – أن يتهم إنسان ملون إنسانًا أبيض بالكذب – ومن الذي يكذب ذلك أنه الزنجي الأسود ... فأسرع تـــوم روبنسون نفسه يقول "لم أقل إنها تكذب ياسيد جيلمر بل أقول إنها على خطأ". إنها قمة العنصرية والأنانية أن ترتدي ثوب السيد وترى من حولك عبيدًا أو أن ترتدي ثوب الصلاح والحضارة وأنت عارٍ من داخلك، لقد تمثل ذلك في هيئة المحلفين الذين ربما تأثروا لفترة قصيرة بأقوال أتيكوس ودفاعه وترددت برهة لأول مرة حيال هذا النوع مـــن القضـــايا ولكنها الوثنية وليس روح الإنسانية. الوثنية التي تؤمن بالأحجار والأصنام دون غيرها حتى لو كانت هـــذه الأصـــنام والأوثان ما هي إلا عبارة عن أصنام لأشياء كريهة لا تقدر ولا تحترم من المنظور الإنساني. لقد أعلنت هيئـــة المحلفـــين وثنيتها وإخلاصها الشديد لهذه الأصنام التي لا تنطق إلا بالكفر بالقيم الإنسانية والعدل والمساواة. لقد كان أتيكـــوس فينش يتوسل إلى هؤلاء الأصنام أن يصدقوا ضمائرهم لقد كان توسلاً يثير الشفقة والسخرية معًا، فأتيكوس يعلـــم أن القضية منتهية قبل أن تبدأ ولكن ما هي إلا محاولة لتحريك الصنم إن كان يتحرك.

إن هاربر لي على لسان أتيكوس قد وضعت الدواء الشافي لهذه الضمائر الصنمية عندما قال أتيكوس إنه "جريمة كبرى أن تقتل طائرًا مغردًا لأنه لم يقترف ذنبًا فلنتركه يعيش". إن مبادلة الآخرين بالعنف والكراهية تمنعنا من سمـــاع الأصوات المغردة وتحرمنا من العيش فى سلام، وتجعلنا لا نسمع إلا صوت النعيق أو طلقات الرصاص. إن شفاء الصدور الحقيقي لا ينبع إلا من الذات نفسها والدليل على ذلك بوب يوويل الذي رغم انتصاره الزائف داخل المحكمة لم يشفِ غليله و لم يداوِ أسقامه.

لقد كان صدى صوت أتيكوس ودفاعه المستنير عن روبنسون قد أثار الذات الملتهمة بداخل بوب يوويل فتحول إلى وحش كاسر يريد الانتقام من الذين جرحوا كبرياء الأنانية بداخله، إنها البارنوايا التي يعاني منها المجتمع آنذاك وهو الشعور بالعظمة لا لقيمة حضارية ولكن العنصرية لونية إنه الافتراء البشري الذي قسم العالم إلى أبناء سام وحام فالبشر كلهم سواسية سواء كانوا أبناء آدم أو نوح أو إبرهيم كما أشار السيد أوباما رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في خطابه إلى العالم الإسلامى، ما هم إلا بشرًا تحكمهم قوانين الحياة والتي جاءت على أيدي الرسل والأنبياء، وإن مقدار الصلاح هو المحدد لوجودك ومكانتك على هذه الأرض.

إن النضج الذي اعترى الأطفال هو بداية لنضج اجتماعي والذي قد اعترى بعض الشخصيات الأخرى بدرجات مختلفة تجاه قضية الآخر فتجد أن القاضي تيلور يسند القضية إلى أتيكوس لا إلى محامى قليل الخبرة وهو دليل على حركة المشاعر والضمير بداخله تجاه القضية، وكذلك شهادة السيد لينك دينس بخصوص توم عندما قال "أريد منكم أن تعرفوا أمرًا واحدًا الآن .... يعمل هذا الشاب عندي منذ ثماني سنوات و لم يسبب مشكلة واحدة ولو صغيرة" ثم وقوفه أمام بوب يوويل لحماية زوجة توم روبنسون عندما كان يؤذيها بالقول والفعل عند مرورها أمام منزله، وهناك السيد هيك مأمور بلدة مايكوم الذي اعتبر بوب قد سقط على سكينه "يا سيد فينش لقد سقط بوب على سكينه وأنا استطيع إثبات ذلك" . حيث إنه يرى أن بوب قد قتل نفسه بالكبرياء اللاإنسانية والأنانية. إنها صور من الحراك الاجتماعي تجاه هذه القضية، ورغم أن هذه الشخصيات قد عانت لموقفها الإنساني تجاه هذه القضية ولكن هناك شخصيات أخرى اكتفت بموقف المتفرج الخائف من هذا الحراك كالعمة أليكسندرا والآنسة مودي أتكنسون والسيدة مريوذر والسيدة راتشيل الذين كانوا محورًا للتناقض الذي يظهره هذا المجتمع، وهناك شخصيات أخرى قد ذابت في الأعراف والتقاليد اللاإنسانية البالية كأمثال بوب يوويل وابنته ماييلا والسيد وولينجهام وغيرهم الذين كانوا مهمشين داخل المجتمع الأبيض نفسه وكأنه ليست لهم أية وسيلة لإثبات ذاتهم داخل هذا المجتمع إلا فرض الذات وعوامل النقص على هؤلاء الملونين الذين يعيشون إلى جوارهم فشعورهم بأنهم أشخاص علي هامش حياة هذا المجتمع جعلهم أكثر التصاقًا بتقاليد بالية وعتيقة وربما كان هذا الدافع الحقيقي لفكرة الانتقام التي تولدت داخل نفس وعقل بوب وكذلك

كاننجهام عندما جاء ليقتص من توم روبنسون دون محاكمة. لقد كان إحساس هؤلاء بالتهميش والاحتقار من جانب هذا المجتمع الذي يعيشون فيه هو الدافع الرئيسي لهذه العنصرية المفرطة. إن إثارة القضية في هذا المجتمع قد قسم المجتمع وأحدث بداخله حالة من الثورة، لقد حركت المياه الراكدة وأحدثت ثورة داخل العقول والضمائر معا ... لقد رسمت الكاتبة هاربر لي هذه الحقائق بكلماتها وصورت ما يدور داخل عقل المجتمع الأمريكي آنذاك: إنه المجتمع الـــذي يرفـــع شعارات رنانة في عالم الحرية والمساواة وقد سطرها في دستوره ويتجاهلها أمام قصور فكري وعقلي عن إدراك معـــنى الحرية والمساواة بين البشر. هذا المجتمع الذي يصف أدولف هتلر والنازية بالجنون كما يشير أتيكوس لابنته سكاوت في وصف هتلر بأنه أحمق ومجنون ويقسم بالعنصرية الحمقاء. إن إنكار روح النازية من قبل أتيكوس يعـــادل إنكـــار روح التفرقة العنصرية التي طُبقت على الزنوج في الجنوب الأمريكي أو في أي مكان على وجه الأرض ... لقـــد أحسّـــت سكاوت في نبرات صوت أبيها بالآلام المبرحة عندما اتجه إلى المترل لاصطحاب كالبورنيا إلي مترل توم روبنسون لإخبار زوجته بموته أو قتله، لقد هزت فاجعة قتل توم العمة ألكسندرا رغم أنها تعارض أتيكوس وموقفه لأنها كانـــت لحظـــة ضعف إنساني لأن توم قتل برصاص الكراهية دون أي اعتبار لآدميته، لقد كانت آلام أتيكوس أن تـــوم روبنســـون لم يصدق قبل موته أن هناك أمل في براءته وأن هناك فجر جديد ربما يظهر ويحمل معه روح جديدة في الإحساس بالأمل وبالمساواة والعدل ولكن توم روبنسون للأسف لم ينتظر هذا الفجر وقرر الهرب لعدم إيمانه بجدوي الانتظار حيث ربما يطول زمن الانتظار أو ربما لا يأتي فالقضية محسومة في عالم تناقضت فيه الأفعال مع الأقوال و لَمَ لا؟ أليس هـــذا عـــالم مايكوم الذي يخجل من نفسه أن تسمع فتاة صغيرة بواقعة اغتصاب فرد حيث إنه لا يتفق مع حيائها وسنها وفي نفس الوقت لا يبالي باغتصاب حقوق بشر يعيشون معهم على هذه الأرض بل مسيحيون مثلهم لأنهم يختلفـــون عنـــهم في اللون؟

لقد أجادت هاربر لي في توظيف الشخصيات داخل العمل الأدبي بصورة رائعة فالشخصيات تدور في عـــالم متناقض ومقسم من الداخل إما بأسلوب عنصري أو بأسلوب طبقي فالمجتمع مقسم عنصريًّا إلي أسود وأبيض: فـــريقين من السادة البيض والعبيد وهم طبقة الزنوج الذين استسلموا لأقدارهم وارتضوا الدنيا في معيشتهم دون أدني حراك لهم،

فهم كما تظهرهم هاربر لي مسالمون غير قادرين على تحريك قضيتهم أو الثورة من أجل الكرامة والحقوق ... إنهم على الأرض الجديدة في العالم الجديد قد نسوا آدميتهم و لم يشاركوا العالم الأبيض أحلامه عليها بفعل فاعل ونتيجة لسلبهم حقوق التعليم والمعايشة والاحترام المتبادل وأشياء أخرى. لقد كانت رواية هاربر لي شمعة في ظلام دامس نحو شـــعاع دائم لأجل الديموقراطية والتعايش السلمي واحترام الآخر لثقافاته دون تمييز عنصري. لقد كانت حراكًا نحو تفاعل أكثر واقعية داخل النفس البشرية والضمير وكسر حواجز الأنانية والذاتية المتغطرسة. لقد صدقت رؤى هاربر لي بأن الغد قد يحمل الجديد وأن الفجر الذي لم ينتظره توم روبنسون والذي لم يؤمن به قد حل وظهرت بوادره عبر الأجيال ليسطع في سماء العدل والضمير الإنساني ويحلق عاليًا ويغرد ويعلن للعالم في قلب العالم العربي أرض الكنانة بأنه فجر جديد علا فيه الضمير وقد أعلن مجيئه للشرق والغرب معًا على لسان الرجل ذي الأصول الأفريقية باراك أوباما الذي أعلن كسر عزلة الغرب تجاه الشرق لأن الشرق ليس هو المجهول بل هو الشريك الحقيقي لحضارة الإنسان على هذه الأرض وهو أصـــل وجذور الحضارة الإنسانية التي استمد الغرب ثقافته وحضارته منها وما الحضارة إلا حلقات متصلة تبدأ و تنتهي لتظهر صور جديدة من الإبداعات الإنسانية فكلنا نبدع ونصب هذه الإبداعات في وعاء واحد وهو الحضارة الإنسانية التي لا تؤمن بلون أو عنصر بل تؤمن بعطاء الإنسان فقط أيًّا كان لونه أو ثقافته... إن الكلمات الرائعة تخلد لأنها من ضـــمائر حية وذات إيمان راسخ بقيم سامية، فلنقترب أكثر وأكثر فكلنا من وعاء حضاري واحد، كلنا أبنـــاء آدم أو نـــوح أو إبراهيم، كلنا بشر فقد جئنا الحياة بإرادة الله ولقد ولدنا فيها أحرارًا بلا قيود فهيا معًا نكسر حواجز الخوف ونكســـر هذه القيود ونسير معًا نحو آفاق جديدة من التعاون لأجل مستقبل جديد يلعب فيه العقل والضمير الدور الأعظم في بناء أسس حضارية ذات سمات إنسانية... وأخيرا فإن سيادة العقل والضمير هي السلاح الأعظم في إدراك الحقائق ولنتذكر قول أتيكوس فينش ...(فالشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان).

أحمد محمد مصطفي سلامة

الإسكندرية

٢٠٠٩/٧/٢